المادة: النقد الأدبي القديم

المستوى: أولى جذع مشترك

أستاذ المادة: د/ مصطفى بوجملين

الأفواج: 1-2-3-4

السنة الدراسية: 2022/2021

المحاضرة الأولى: قضية الوضوح والغموض

تشكّل ظاهرة الوضوح والغموض أحد أهم القضايا السجالية والخلافية في دائرة البحث النقدي العربي القديم؛ إذ تجاذبت فيها الأقوال والرؤى والأحكام بين طرفي هذه الثنائية؛ وخاصة مع بزوغ تيار التحديث الشعري؛ والذي تزعّمه الشاعر (أبو تمام)؛ حيث وسم منجزه الإبداعي بطابعي الغموض والتعقيد؛ وبالتالي، مخالفته لمألوف النظم الشعري الواضح.

وانطلاقا من ذلك، فإنّنا مدار محاضرتنا سيعرج إلى المسائل التي لفّت قضية (الوضوح والغموض)؛ والتي نعرضها وفق الآتي:

1- مفهوم الوضوح والغموض:

1-1 تعريف الوضوح:

1-1-1 لغة:

وردت لفظة الوضوح في معجم لسان العرب لابن منظور وفق المحدّد التعريفي الآتي: ((الوضح: بياض الصبح والقمر...وضح الئ يضح وضوحا وضحة واتّضح: أي بان، وهو واضح ووضّاح...ووضح الطريق أي استبان. والوضح: الضوء والبياض)).

1-1-2 اصطلاحا:

يدلّ الوضوح في عرف البلاغيين على البيان؛ ومن ذلك مفهومه الاصطلاحي عند الجاحظ؛ فهو ((الدلالة الظاهرة على المعنى الخفيّ))؛ وكذلك الأمر في مفهمته للفظ (البيان)؛ إذ قال في شأنه: ((اسم جامع لكلّ شيء، كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ...، لأنّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنّما هو الفهم والإفهام، فبأيّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان)).

1-2 تعريف الغموض:

1-2-1 لغة:

وردت دلالة مفردة الغموض في لسان العرب وفق الآتي: ((غمض المكان، وغمض الشيء وغمض يغمض غموضا: خفي ....والغامض من الكلام خلاف الواضح...ومعنى غامض: لطيف)).

1-2-2 اصطلاحا:

يتحدّد مفهوم الغموض عند بعض النقاد وفق المؤطر التعريفي الآتي: ((الغرابة والإبهام؛ أي يستغلق المعنى فلا يصل إلى المتلقّي أو القارئ إلى مضمون النّص، فهو أن يجد صعوبة في فهمه والوصول إلى معناه، وربّما استحالة الفهم، وهذا ما اصطلح عليه بالإيغال أو التعمية والإلغاز)).

2- سجالات قضية (الوضوح والغموض) لدى النقاد القدامى:

اختلفت الآراء بين النقاد القدامى في هذه المسألة الشائكة؛ إذ انتصر بعضهم إلى الوضوح، واعتبروه الشرط الثابت في بلاغة النظم الشعري، بينما فضّل غيرهم ملمح الغموض؛ والذي يرونه مكمن الإبداع والإجادة؛ وخاصة أنّه سيجعل نوافذ القراءة مشرعة أمام متلقّيه.

2-1 المؤيّدون للوضوح:

راهنت طائفة من النقاد العرب القدامى على تكريس مبدأ الوضوح في الخطاب الشعري؛ وذلك بهدف وصول المعنى إلى المتلقي، والبعد عن كلّ ما يعيق ذلك. وهنا، فإنّنا نلفي (الجاحظ) من ضمن

أولئك الذين رسخوا ظاهرة الوضوح في كتاباتهم البلاغية، ونهج صوب المقولة التي مقتضاها: ((لا خير في كلام لا يدلك على معناه، ولا يشير إلى مغزاه، وإلى الغرض الذي إليه نزعت)).

كما تبرز الإجادة الشعرية عند (ابن رشيق) في وضوح الدلالة، إذ على الشاعر أن ((يلتمس من الكلام ما سهل، ومن القصد ما عدل، ومن المعنى ما كان واضحا جليّا)).

والأمر كذلك عند (أبو هلال العسكري)؛ إذ نراه مؤيّدا هذه الرؤية النقدية الداعمة للوضوح في القول الشعري؛ حيث يقول: ((من شرط البلاغة أن يكون المعنى مفهوما واللفظ مقبولا)). كما أنّه ينظر إلى مسألة الإغلاق والتعمية عجزا يصاحب الشاعر؛ وهذا ما عبّر عنه بشكل واضح قائلا: ((من أراد الإبانة في مديح، أو غزل، أو صفة شيء، فأتى بإغلاق دلّ ذلك على عجزه عن الإبانة، وقصوره عن الإفصاح)).

2-2 المؤيّدون للغموض:

استقطبت ظاهرة الغموض عديد النقاد، إذ نافحوا على تمظهراتها في المنجز الشعري العربي ومن بين هؤلاء (القاضي الجرجاني)؛ حيث أفصح عن ذلك بقوله: ((لو كان التعقيد وغموض المعنى يسقطان شاعرا لوجب أن لا يرى لأبي تمام بيت واحد)).

وينحوا (عبد القاهر الجرجاني) مع هذه النظرة النقدية الفنّية؛ أي صوب المعنى الغامض اللطيف؛ والذي يتطلّب سعة نظر وتبصّر من متلقيه؛ حيث يقول في هذا الصدد: ((من المركوز في الطبع أنّ الشيء إذ نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى وبالمزيّة أولى فكان موقعه من النفس أجلّ وألطف)).

وبخصوص منظور (أبو إسحاق الصابي) لهذه الظاهرة الفنّية، فقد ورد في سياق تفريقه بين المنظوم والمنثور؛ إذ رأى الغموض أليق للنظم، والوضوح أنسب للنثر؛ وهذا ما نصّ عليه قوله: ((إنّ طريق الإحسان في منثور الكلام يخالف طريق الإحسان في منظومه؛ لأنّ الترسّل هو ما وضح معناه، وأعطاك سماعه في أوّل وهلة ما تضمّنته ألفاظه، وأفخر الشعر ما غمض، فلم يعطك غرضه إلا بعد مماطلة منه)).

2-3 دواعي الغموض وأشكاله:

بدأ الاهتمام بقضية الوضوح والغموض عند النقاد العرب القدامى في العصر العباسي والذي تزامن مع التغيّرات والتطورات التي طبعت هذا العصر في شتى المجالات؛ وخاصة أنّه كان مجمع الثقافات والمعارف الوافدة إلى المجتمع العباسي؛ وهذا الأمر انطبع بشكل واضح في طريقة النسج الشعري؛ والذي اتّسم عند بعض شعرائه بالغموض والإلغاز في منظور المناوئين لهذا التحديث والتجديد الفنّي؛ وخاصة في أشعار زعيم هذه النزعة الجديدة (أبو تمام)؛ والذي سأله رجل قائلا: يا أبا تمام لم لا تقول من الشعر ما يفهم؟ فكان ردّه عليه: وأنت لم لا تفهم من الشعر ما يقال؟

وبخصوص أشكال الغموض، فإنّنا نجد في قول (القاضي الجرجاني) الذي خصّه لشعر أبي تمام ما يوضّح بعضهم، حيث يقول عنه: ((حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه، فحصل منه على توعير اللفظ، فقبّح في غير موضع، وتغلغل في التصعّب كيف قدر، ثمّ لم يرض بذلك حتى أضاف إليه طلب البديع، فتحمّله من كل وجه، وتوصّل إليه بكلّ سبب، ولم يرضى بهاتين الخلّتين حتى اجتلب المعاني الغامضة، وقصد الأغراض الخفية ...فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بد إتعاب الفكر، وكدّ الخاطر)).

الإحالات:

جمال قالم، قضية الوضوح والغموض في النقد القديم

ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه

القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه.

عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة

أبو هلال العسكري، الصناعتين